بين فن التاريخ وفن الحرب

١٣ ـ خالد بن الوليد *

فى حروب الردة

للفريق طه باشا الهاشمى

رئيس أركان الجيش العراقى

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدنى شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت البعير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

والواقع أن خالداً أيضاً كان راغباً فى الصلح دون أن يلجأ إلى القتال . وهذا ما دعاه إلى أن يخفف الشروط . فتعاهده مع بنى حنيفة ينص على أن يسلموا الذهب والفضة ونصف السبى والسلاح والخيل ، وأن يأخذ هو كل قرية ومزرعة وحائط (حديقة مسورة) باسم بيت المال ، وأن يسلموا أنفسهم حتى يسلموا . أما البلاذرى فيروى أن المعاهدة فرضت على بنى حنيفة ربع السبى ونصف الذهب والفضة والسلاح

ولعل هذه الرواية هى الصحيحة ، لأنها تدل على تساهل خالد فى عقد الصلح . ويذكر الطبرى أن أبا بكر أرسل كتاباً إلى خالد مع سلامة بن وقش يأمره إن أظفره الله بأن يقتل من جرت عليه المواشى من بنى حنيفة — يريد بذلك أن يقتل من قاوم من الحنفيين — فوصل الرسول بالكتاب بعد عقد المعاهدة . فأراد الأنصار أن يستغلوا أمر الخليفة ، فطلبوا إلى خالد أن ينفذ ما جاء فى الكتاب ، وكان أسيد بن حضير رئيس الأوس على رأسهم . إلا أن خالداً لم يلتفت إليهم ، بل وفى لبنى حنيفة وثبت على ما كان منه فجمع بنى حنيفة إلى البيعة والبراءة

ويذكر ابن حبيش الأسباب التى ألجأت خالداً إلى عقد الصلح ومخالفته كتاب الخليفة ، وهى تتلخص فى كثرة الخسائر التى انتابت المسلمين فى المعركة ، إذ قل عدد المسلمين وكان أكثرهم جريحاً . وبعد عقد المعاهدة لا يجوز النكول عنها ، ولا سيما أن بنى حنيفة أسلموا . وتنقل الرواية أن سلامة بن وقش أيضاً أصر على خالد بتنفيذ أوامر الخليفة . غير أن خالداً لم يغير رأيه واعتبر القضية منتهية

ومع ذلك استعمل خالد الشدة فى معاملته أهل العارض وبعض قرى بنى حنيفة . فقرية سيوح وعرفة والغبراء وقيشان ومرجعة والمصانع اعتبرت فى خارج أحكام المعاهدة ، فسبى أهلها وصادر أملاكها . والروايات لا تبحث فى أسباب هذه الشدة ، غير أنه يلوح لنا أن أهل هذه القرى إما أنهم حاولوا الاخلال بشروط الصلح ، وإما أنهم قتلوا المسلمين غدراً ، وإما أنهم مثلوا بالمسلمين فى بلاد اليمامة قبل الحركات

المناقب

يستنتج الباحث من حركات اليمامة بعض المناقب التى ينبغى الوقوف عليها ، وهى تدل على سجايا العرب الأولين مسلميهم ومرتديهم ، وتوضح لنا بعض المزايا الكامنة التى مكنت العرب من الانتصار على أعدائهم فى الشرق وفى الغرب

المنقبة الأولى — التضحية

كان ابن عمر عبد الله وأخوه زيد بن الخطاب فى الجيش الذى قاتل فى عقرباء . وكان زيد على ما نعلم يقود القلب ، وقد استشهد فى المعركة مشجعاً المسلمين ومدافعاً عن رايتهم

ويذكر الطبرى أن عبد الله بن عمر لما رجع إلى المدينة قال له أبوه : « ألا هلكت قبل زيد ؟ هلك زيد وأنت حى »

فأجاب ابنه قائلاً : « قد حرصت على ذلك أن يكون ، ولكن نفسى تأخرت فأكرمه الله بالشهادة »

وفى رواية أخرى قال عمر لابنه : « ما جاء بك وقد هلك زيد ؟ ألا واريت وجهك عنى ؟ » . فأجاب عبد الله : « سأل الله الشهادة فأعطيها وجهدت أن تساق إلى فلم أعطها »

والتضحية كلمة مرادفة للبطولة ، وهى من أخطر العوامل فى حضارة الأمم إن لم تكن أخطرها . ولا أغالى إذا قلت إن تاريخ الحضارة مكتوب بمداد هو دماء الأبطال المراقة ومساعيهم المبذولة من أجل بنيان صرح التمدين الباذخ بجميع أركانه الأدبية والعلمية

(*) وهو بحث فى قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل « الرسالة »

والسياسية . ولولا التضحية لما خرج الانسان الأول من الغاب والكهف الى المدينة والقصر . والعرب لولا بطولتهم في تضحيتهم لما تربعوا في قصور بغداد والشام والقاهرة والحمراء ، ولظلوا تائهين في مجاهل باديتهم القاحلة الجرداء ، ولخنق الاسلام في مهده . فالتضحية رفعت عمد الأديان ، ونشرت ألوية العلوم ، ووضعت أسس الدولة قديمها وحديثها ، وسمت بابنائها الى أوج العز والسؤدد ، وقمة المجد والصولة . أجل إن العرب من الأمم الفاتحة المفطورة على البطولة والتضحية ، إلا أن نبيهم العظيم جاءهم برسالة وضع بها نصب أعينهم مثلاً أعلى هو إيمانهم الوطيد ، فبرزت نفوسهم الى ذلك المثل الأعلى على حد تعبير علماء النفس ، وحصروا وجدانهم في ايمانهم القوى ، فضلاً عن دافع غيرتهم على أحسابهم . وقوة ذلك الايمان زادتهم إقداماً على التضحية التي تجلت بأروع مجاليها في حروبهم ، ولاسيما في حروب خالد بن الوليد ، ومنها حروب الردة التي نحن بصددها . فهذا عبد الله بن عمر أتيه أبوه لأنه رجع حياً دون أن يستشهد في الذود عن ايمانه أو مثله الأعلى . ولا تزال روح التضحية متغلغلة في نفوس العرب والأعراب حتى اليوم . وما أكثر الروايات المنقولة عن رجال العرب ونسائهم من ميادين القتال في التضحية العربية المجيدة في ثوراتهم الأخيرة في الأقطار العربية ، دونها ما يروى عن رجال اسبرطة ونسائها بهذا الصدد . يروى عن امرأة عربية عراقية أنها كانت تشجع أبناءها السبعة في إبان الثورة العراقية في سنة ١٩٢٠ ، وكانت كلما سقط أحد أبنائها في حومة الشرف تنشد قائلة : « يا موت اطحن وأنا اهلك » — أي يا رحى الموت اطحني الرجال وأنا أقدم اليك أبنائي !

المنقبة الثانية — السياسة

كان مجاعة بن مرارة من رؤساء بني حنيفة ، وقد وفد على الرسول وأسلم فاقطعه أرضاً ، فلما ثار مسيلمة ببني حنيفة وادعى النبوة كان مجاعة معه . ويلوح لنا أنه كان يداري مسيلمة من جهة ويراقب حركات جيش خالد من جهة أخرى . فلما وثق بتقدم جيش خالد نحو اليمامة استفاد من الشغب الثار على مسيلمة ، فخرج مع بعض رجاله من اليمامة طالباً الثأر من بني عامر وبني تميم . ولعل طلب الثأر كان حجة لخروجه من اليمامة قبل وصول جيش المسلمين إليها . ولما باغتته طليعة المسلمين في ثنية اليمامة استحياه خالد لعلمه أنه ينفعه في قتاله في اليمامة وحبسه عنده كالرهينة وتركه في فسطاطه قيد مراقبة زوجه أم تميم . فلما تغلب الحنفيون على المسلمين وأزاحوهم عن المعسكر دخلوا الفسطاط وهموا بقتل أم تميم فمنعهم مجاعة من ذلك صارخاً في وجههم « مه ! أنا جار لها فنعمت الحرة ! عليكم بالرجال ! »

وفي رواية أن مجاعة عاهد أم تميم على أن يساعدها اذا انتصر الحنفيون على المسلمين ، وعلى أن تساعده هي بدورها اذا انتصر المسلمون على أهله . ولما انتهت المعركة عرض مجاعة الخدمة على خالد وطلب اليه أن يتوسط في عقد الصلح ، فقبل خالد ذلك ، وأوفده الى بني حنيفة حاملاً شروط الصلح . وكان مجاعة قد علم بأن المسلمين كابدوا خسائر فادحة ، وأن الحرب أنهكت قواهم ، لأنه تفقد مع خالد ميدان المعركة وأطلعه على قتلى الحنفيين ، وهو الذي دلهم على جثة المحكم بن الطفيل وجثة مسيلمة . ولاشك أنه تأكد شدة مصاب المسلمين . فلما ذهب بمهمته تيقن شدة الشروط التي فرضها خالد على بني قومه فأراد أن يخدمهم خدمة يخلص بها قومه من هذه الشروط القاسية ويمهد السبيل لاستلانة جانب خالد . وفي مثل هذا الموقف دبر حيلة أثبت بها ذهاءه .

وكانت الحيلة التي دبرها — كما يرويها الرواة — تتلخص فيما يلي : « دخل مجاعة الحصون وليس فيها إلا النساء والصبيان ومشيخة فانية ورجال ضعفاء ، فظاهر الحديد على النساء — أي ألبسهن الدروع وسلحهن — وأمرهن بأن ينشرن شعورهن ويشرفن على رؤوس الحصون إلى أن يرجع إليهن » ، وبذلك أراد أن يظهر لخالد أن القوم لا يزالون في حصونهم متأهبين للدفاع لكي يحمله على تخفيف الشروط . فلما عاد قال لخالد : « إن القوم قد أبوا أن يخبروا ما صالحتك عليه ، ولكن ان شئت صنعت شيئاً فعرضت على القوم » يريد بذلك أن يخفف خالد من شروط الصلح . وحدق المسلمون من بعيد إلى الحصون ، فرأوا عليها الناس ظانين أن بني حنيفة حشدوها وأنهم عازمون على الدفاع

ولقي مجاعة صعوبة في حمل المخالفين من بني حنيفة على قبول شروط الصلح . وكان سلمة بن عمير يقول لبني حنيفة : « قاتلوا عن أحسابكم ولا تصالحوا على شيء » . أما مجاعة فيقول لهم : « يا بني حنيفة أطيعوني واعصوا سلمة فانه رجل مشئوم ، قبل أن يصيبكم ما قال شرحبيل بن مسيلمة ، قبل أن تسترق النساء غير رضيات ، وينكحن غير حظيات »

والرواية تقول إن بني حنيفة أطاعوا مجاعة وعصوا سلمة . وكان من أمر حيلته أن أقنع خالداً بأن يخفف شروط الصلح . ففرض الربع من السبي والنصف من الذهب والفضة والسلاح والخيل بعد ما كان قد طلب أن يعطوه كل ذلك . فلما فرغ من الصلح ، وفتحت الحصون أبوابها إذا هو لم يجد فيها إلا النساء والصبيان . فقال خالد لمجاعة : « ويحك خدعتني » فقال مجاعة : « قومي ، ولم أستطع إلا ما صنعت »

لم يسق مجاعة توجعه لقومه ولا استهواه حب الانتقام قطاش حتى يدع بني جلدته يلقون أنفسهم في مهاوي الهلاك ، بل كان مخلصاً في قضيته ، وعمد مجاعة إلى الحيلة الواسعة فصان بقية قومه من أشراك الهلاك ، وخفف عنهم وطأة الانكسار الهائل ، فكان في تلك السياسة مصلحة بني حنيفة

المقبة الثالثة — العصبية القومية

كان سلمة بن عمير يشجع الناس على المقاومة ، وقد رأى من الذل أن يتحكم المسلمون في بني قومه بعد أن قاتلوا قتال الأبطال منعاً لحوزتهم ودفاعاً عن نسائهم . وكان يرى الموت ولا يرى النساء تسترق غير رضيات وينكحن غير حظيات . وقد قتل مسيلمة وابنه شرحبيل وصرع محكم اليمامة ابن طفيل . أبعد كل هذا يرضى بالهوان ؟ بل الموت أولى دون التسليم بالشروط التي يشترطها خالد . فيصرخ في أصحابه : « قاتلوا عن أحسابكم ولا تصالحوا على شيء » ثم يعود فيشجعهم على المقاومة قائلاً : « فإن الحصن حصين والطعام كثير وقد حضر الشتاء »

لقد قارن بنو حنيفة بين ما قاله سلمة وما قاله مجاعة ، ورأوا أن لا قبل لهم بالمسلمين ، فلم يروا بداً من التسليم بشروط الصلح ولاسيما أن مجاعة دبر الحيلة ليموه على المسلمين بقوة الحنفيين للدفاع ويخفف من وطأة الصلح . فلم يحفل سلمة بكل ذلك ، بل أضمر سوءاً لخالد ولم يحتمل إهانة الغلبة لقومه فاجمع على أن يفتك به . ولما حشر بنو حنيفة إلى البيعة والبراءة طلب سلمة من مجاعة أن يستأذن له في الدخول على خالد ليكلمه في حاجة له . فأقبل سلمة مع بني قومه مخبئاً سيفه تحت العباءة ، فلما رآه خالد لم يقبله ، ولعله كان يعلم كرهه له ، فأخرجوه عنه وفتشوه فوجدوا معه السيف ، فثار ثائر الحنفيين فأخذوا في سبه ولعنه صارخين في وجهه ، أتريد أن تهلك قومك وتستأصل بني حنيفة وتسبي الذرية والنساء ؟ فاوثقوه ووضعوه في الحصن . غير أن سلمة أقسم أن يثأر لبني قومه . لذلك يعاهدهم على ألا يحدث حدثاً فيعفون عنه . فلم يصدقوه ولم يقبلوا منه عهداً . أعيته الحيلة ولم ير بداً من الأفلات ليفتك بخالد مهما كلفه الأمر . فيهرب من الحصن ليلاً ويعمد إلى معسكر خالد ، ويصيح في وجهه الحرس فيفزع بنو حنيفة فيتبعونه حتى يدركوه في إحدى الحدائق المسورة فيقاومهم بالسيف فيكتنفونه بالحجارة فيرى أن جميع الأبواب موصدة في وجهه ، وأنه غير قاتل خالداً ، فالأولى أن ينتحر ولا يرى المسلمين يسبون الذرارى ، فيضرب نفسه بالسيف ، ويسقط في البئر فيموت

مبادئ خالد الحربية

تنم الحركات التي قام بها خالد في قتاله أهل الردة على المبادئ الحربية التي نهجها . وفي هذه المبادئ أسس لا تختلف كثيراً عن الأسس التي اتخذها القواد العظام وأصبحت من المبادئ الحربية الخالدة . نذكر فيما يلي بعض تلك الأسس :

أولاً — التوفيق بين القيادة والسياسة : يبدو لنا من الخطط التي وضعها خالد للحركات على طليحة بن خويلد ومسيلمة الكذاب والتدابير التي اتخذها بعد الانتصار أن خالداً من القواد الذين وفقوا دائماً بين القيادة والسياسة . وأصبح هذا الأس في عصرنا من أخطر عوامل الظفر . ويقيناً أن من أكبر العوامل التي حالت دون استثمار الانتصارات الباهرة التي أحرزها نابليون في حروبه على الحلفاء عدم توفيقه بين السياسة والقيادة . وكذلك من العوامل التي أدت إلى خيبة الألمان في الحرب العامة نظر قادتهم إلى الأمور من الوجهة الحربية فقط ، وعدم توفيقهم بين السياسة والقيادة

فنرى خالد بن الوليد في الخطة التي وضعها للحركات على طليحة بن خويلد أنه وفق بين السياسة والقيادة ، فلم يقدم جيشه إلى بزاخة إلا بعد أن مهد له سبيل الانتصار بجلب قبائل طيء إلى جانبه وفصل الفرقتين : جديلة وغوث عن بني أسد والاستفادة فعلاً من القوة التي أمدت قبائل طيء بها جيش المسلمين

وبعد انتصاره في بزاخة نراه يفرض على القبائل تقديم عدد معين من السلاح . وفي ذلك تعزيز لجيشه وإضعاف لشأن خصمه

وقبل أن يتقدم بجيشه نحو اليمامة يسعى قبل كل شيء لاستمالة التميميين الذين التجأوا إلى مسيلمة واخراج جماعة سجاح من

ميدان العمل . ولما ظفر ببني حنيفة لم يتردد فى عقد الصلح معهم على أساس التساهل برغم مخالفة رؤساء الأنصار والمهاجرين له ودون أن يعمل بأمر الخليفة الصريح . وقد ذكرنا مجمل الأسباب التي ألجأت خالداً إلى ذلك . ولخالد مواقف تدل على استعماله الشدة واللين تبعاً لمقتضى الحال

ثانياً — الاستطلاع : لقد عني خالد بالاستطلاع فى جميع حركاته . وقبل تقدمه نحو بزاخة يوفد قوة استطلاع بقيادة عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم . وفى حركاته على بني تميم يوفد أمامه السرايا للتجسس والاستطلاع . أما فى حركات اليمامة فيرسل مكنف بن زيد الخيل وأخاه ليتسقطا الأخبار . وكان فى جميع حركاته على اتصال مستمر بالخصم الذى يريد أن يضربه للاطلاع على شؤونه والقيام بالحركة فى الوقت الملائم

ثالثاً — المطاردة : من الأسس التي اعتمدها خالد فى حركاته القيام بالمطاردة بعد المعركة . وقد يختلف فى أسلوب مطاردته عن الأسلوب الشائع الآن ، وهو يتطلب سوق أقصى قوة فى اليد لقطع خط الاتصال على العدو المنسحب . أما خالد فكان يوفد السرايا فى اتجاهات مختلفة للتفتيش عن العدو المنهزم والقضاء عليه أينما وجدته . فالعدو بعد انكساره لم ينسحب الى محل معين كما هو شأنه اليوم ، وذلك لأن الحياة فى البادية تساعد المنهزمين على الالتجاء إلى أحياء مختلفة . هكذا كان شأنه فى مطاردة بني أسد وفزارة بعد انتصاره فى بزاخة . وهكذا كان عمله بعد معركة عقرباء . فلم يشأ أن ينازل الحصون ، بل أوفد السرايا لتلتقط من كان خارج الحصون

رابعاً — الإبداع : لم يتأخر خالد لحظة فى استعمال إبداعه الذاتي حين تطلب الموقف ذلك . وهو يشذ عن الأوامر الصادرة اليه متى رأى الفرصة سانحة للعمل بمخالفة الأوامر . فتراه بعد أن أنهى أمر بني أسد فى بزاخة واطلع على أحوال بني تميم وتأكد أن الفرصة سانحة للتقدم أمر جيشه بالحركة برغم الأوامر الصادرة اليه والقاضية بألا يتقدم من محل إلى محل آخر قبل أن يتلقى أمر الخليفة . فالأنصار يذكرونه بأمر الخليفة الصريح . إلا أن خالداً يقول لهم إنه هو الأمير وإليه تنتهي الأخبار ، وإن لم يأته أمر من الخليفة لا يريد أن يضيع الفرصة مادام مالك بن نويرة حياله وبطون بني تميم نافرة منه

خامساً — التنظيم : اتضح لنا من حركات خالد أنه ينظم جيشه ويقسمه إلى أقسام ، ويعين لكل قسم قائداً . ويعرض الجيش بنفسه قبل أن يتحرك . ففى ذى القصة ينظم جيشه قبل الحركة ، وفى البطاح ينظمه ويعين لكل قسم منه قائداً . وقبل القتال يجعل على كل قسم من نظام القتال قائداً خاصاً . وبعد انكسار المسلمين فى عقرباء ، ودخول الأعداء الفسطاط يغير خالد تعبئة الجيش فيضع أهل القرى فى جانب وأهل البادية فى جانب آخر للأسباب التي سبق ذكرها

سادساً — حشد القوات : رأينا خالداً فى جميع حركاته يحشد جميع قواته قبل المعركة ولا يشتتها . فيسير على طريق واحد ويسير به نحو الهدف دون أن يضعفه بفرز بعض القوات منه لمقاصد أخرى . وكان يفرز قوة من جيشه ويوفدها الى الأمام مقدمة بقصد الامن والاستطلاع ، وأحياناً يقيم له ردءاً فى الخلف ليحمى خط الانسحاب . وكانت المقدمة دائماً تشترك فى المعركة مع الكوكب (القسم الأكبر)

سابعاً — التعرض : لقد اتخذ خالد فى جميع حركاته خطة الهجوم ، ففى بزاخة ، يهجم بجميع قواته على قوات طليحة بن خويلد ، وفى عقرباء يتقدم نحو العدو ويهاجمه فى بلاده . وكان يتوخى الهدف ولا يحيد عنه قط . والهدف عنده هو محو العدو من سفر الوجود .

انتهى البحث — طه الهاشمي

الثورة العرابية
بقلم فخري أبو السعود المدرس بالعباسية الثانوية
كتاب يجب أن يقرأه كل مصري
يطلب من المكتبة التجارية بشارع محمد علي والنهضة بالمدابغ والهلال بالفجالة والهندية بميدان سوارس بالقاهرة والعباسية بالاسكندرية ومكتبة شنب بالسكة الجديدة بطنطا
الثمن ٥ — النسخ الباقية معدودة